
أيها المقصر
متى تتوب؟
إعداد
القسم العلمي بمدار الوطن
مصدر هذه المادة :
الكتيبات الإسلامية
www.ktibat.com
دار الوطن للنشر

المقدِّمة

الحمد لله وكفى، وصلاةً وسلامًا على نبيِّه المصطفى ورســـوله المجتبى..

أمَّا بعد:

فإنَّ التوبة إلى الله تعالى نورٌ يتلألأ وسط ظلام المعصية الحالك، وبريق يلوح في الأفق فيغري العصاة بالرجوع إلى ربِّهم، ويُزيِّن لهم الكفَّ عن العصيان.

وما زالت التوبة تنادي العصاة والمقصرين:

أن هلمُّوا إلى بارئكم، أقبلوا على ربكم؛ فإنَّ رحمته واســـعة، وفضله عظيم، وفرحه بالتائبين ليس له منتهى ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَـــلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّـــيِّئَاتِ وَيَعْلَـــمُ مَـــا تَفْعَلُـــونَ**﴾ [الشورى: ٢٥].

فيا أيها العاصي، تُبْ إلى ربِّك، وابكِ على خطيئتك!

ويا أيها المقصِّر، تُبْ إلى ربِّك من تقصيرك، واســـألْه العفـــو والغفران.

ويا أيها المطيع، تُبْ إلى ربِّك من رؤيتك لطاعتك، وإدلالـــك بعملك وغفلتك عن عيوبك.

﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُـــمْ تُفْلِحُـــونَ**﴾ [النور: ٣١].

وهذه الصفحات- أخي المسلم الموفَّق - قطوفٌ مختارةٌ وثمـــارٌ يانعةٌ في فضل التوبة وأحكامها وثمراها وبعض قصـــص التـــائبين، نسأل الله تعالى أن يكون عونًا لكلِّ مسلمٍ على سلوك طريق التوبة، إنه خير مسؤول، وهو نعم المولى ونعم النصير

الناشـــر

نِعم التوبة

أخي الحبيب:

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين؛ فالدنيا ليست وطنًـــا ولا مقرًّا، بل هي معبرٌ و مَمرّ .. ولا ينتهي السفر إلاَّ بالقدوم على الله، فمن أحسن في سفره كوفئ بالنعيم المقيم في الجنة، ومن أســـاء في سفره جوزء بالعذاب الأليم في جهنم .. فالسعيد من تأهَّب لهـــذا السفر واستعدَّ له، واتَّخذ له زادًا من التقـــوى والعمـــل الصـــالح، والشقيُّ من ضيَّع عُمره في الغفلة والمعصية، فكان قُدومه على ربِّـــه قدوم العصاةِ والمُذنبين والمجرمين.

والعبد في سَفره إلى الله لا بدَّ أن يقع منه ما لا يُحمـــد مـــن الأقوال والأفعال؛ لأنَّ الإنسان غير معصوم، وهو دائـــم النســـيان والغفلة .. ولَمَّا كانت المعاصي سبب سخط الله على العبد وإنزال العقوبة به، لم يترك الله عزَّ وجلَّ عِباده أسرى للمعصية أو عرضـــة للحيرة والقلق، بل أنعم عليهم بنعمة عظمى، ومنَّ علـــيهم بمِنَّـــةٍ كبرى، وهي أن فتح لهم باب التوبة والإنابة، ولـــولا أن وفَّـــق الله عباده إلى التوبة، وأنعم عليهم بقبولها؛ لوقع العباد في حرجٍ شديد، وأصابهم اليأس من المغفرة، وقصرت هممهم عن طلب القُرب مـــن ربِّهم، وانقطع رجاؤهم من العفو والصفح والمسامحة.

الله غفور تواب رحيم

وقد وصف الله نفسه في القرآن ما يُقارب مائة مرَّة بأنه غفور رحيم، وامتنَّ على عباده بالتوبة في كثيرٍ من الآيات الكريمات، قال

تعالى: ﴿والله يُريدُ أن يتُوب علـــيكُم ويُريـــدَ الـــذين يتبعـــون الشهوات أن تميلُوا ميلاً عظيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُـــلَّ شَـــيْءٍ﴾ [الأعـــراف: ١٥٦].

فيا أخي الحبيب:

باب التوبة أمامك مفتوح ينتظرك، وطريق الأوبة مُمهَّد يشتاق إليك، فاطرق الباب، واسلك الطريق، واســـأل ربَّـــك التوفيـــق والإعانة، وجاهد نفسك واقصرها على طاعة ربها وإذا تُبـــت إلى ربِّك وعُدت إلى المعصية مرَّةً أخرى ونقضت التوبة فلا تستحي من تجديد التوبة مرَّةً أخرى، مهما تكرَّر ذلك منك.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَـــا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُـــورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِـــنْ قَبْـــلِ أَنْ يَـــأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

وقال ﷺ: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبـــتم**

لتاب الله عليكم»[١].

فأين التائبون النادمون؟

أين العائدون الخائفون؟

أين الراكعون الساجدون؟

وجوب التوبة

التوبة:

هي الرجوع عمَّا يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظـــاهرًا وباطنًا، وأصل التوبة الرجوع، ويقال: من رجع عـــن المخالفـــات حياءً من الله وخوفًا من عذابه فهو تائب.

والتوبة فرض عينٍ على كلِّ مسلم بالكتاب والسُنة والإجماع.

أما بالكتاب:

فلقول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

ففي هاتين الآيتين الأمر الصريح بالتوبة لجميع المؤمنين، وهـــذا يدُلُّ على وجوب التوبة، يدُلُّ كذلك على أنَّ التوبة ليست خاصة بالعصاة والمخلطين؛ لأنَّ الله تعالى أمر بها أهل الإيمان.

(١) صحيح ابن ماجة.

ومِمَّا يدلُّ على وجوب التوبة كذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]

حيث قسَّم العباد إلى قسمين: تائب وظالم، ولَمَّا كان الظُلم محرَّمًا كانت التوبة واجبة.

وأما السنة:

فقد أمر النبي ﷺ بالتوبة فقال: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة**»(١) .

وأما الإجماع:

فقد قال ابن قدامة: الإجماع منعقدٌ على وجوب التوبة(٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولا بدَّ لكلِّ عبدٍ من توبة، وهي واجبةٌ على الأوَّلين والآخرين(٣) .

وقال القرطبي: ولا خلاف بين الأمة في وجوب التوبة، وأنها فرض متعيَّن(٤) .

أخي الحبيب:

من رحمة الله تعالى عليك أن جعل التوبة فرضًا لازمًا، وذلك ليعفو عنك ويغفر ذنوبك ويمحو سيئاتك، فالله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنا

---

(١) رواه مسلم.
(٢) مختصر منهاج القاصدين.
(٣) مجموع الفتاوى.
(٤) الجامع لأحكام القرآن.

وعن طاعتنا وأعمالنا كما قال سبحانه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧].

فبادر أخي بالتوبة الصادقة، وجدِّد التوبة في كلِّ يوم وفي كلِّ وقت، فإنَّ الراجع عن ذنبه والنادم عليه لا يكون مُصِرًّا وإن عاد في اليوم الواحد أكثر من سبعين مرَّة!

تب الآن

التوبة أخي الحبيب واجبة على الفــور، بمعــنى أنَّ تأخيرهــا والتسويف بها ذنب آخر يحتاج إلى توبة، وما يدري هذا المســوف الذي يقول: غدًا سأتوب أنه سيعيش إلى غد؟ بل ما يُدريــه أنــه سيقوم من مقامه؟ فإنَّ الموت قد يأتي بغتةً بلا أسباب ولا مقدِّمات، وكم رأينا أناسًا ماتوا فجأة بسبب توقُّفٍ مفاجئٍ للقلب، أو بسبب حوادثٍ مروِّعة، أو بأسباب لا يعلمها إلاَّ الله .. قال تعالى: ﴿وَمَــا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وأمر سبحانه بالمسارعة إلى ما يوجب المغفرة، ومنها التوبــة، فقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّــةٍ عَرْضُــهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّــا اللهُ وَلَــمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال النبي ﷺ: «**ويلٌ للمُصِرِّين علـــى مـــا فعلـــوا وهـــم يعلمون**»[١] .

فيا أخي الحبيب:

تُبِ الآن قبل أن تتراكم الظُلمة على قلبك، فلا تستطيع فكاكًا من المعاصي.

تُبِ الآن قبل أن يهجم المرض أو الموت فلا تجد مهلةً للتوبة.

تُبِ الآن قبل أن يأتيك ملك الموت فتقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُـــونِ﴾ فيقال لك ﴿كَلَّا﴾.

فضائل التوبة

التوبة في الحقيقة هي دِين الإسلام ومنازل الإيمان، ولا يستغني عنها الإنسان في جميع مراحل حياته، فالسعيد من جعلها ملازمة له في رحلته إلى الله والدار الآخرة والشقي من أهملها وتركهـــا وراء ظهره.

وللتوبة فضائل كثيرة منها:

١- أنها سببٌ جالبٌ لمحبَّة الله عزَّ وجل .. قال تعالى:

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

٢- أنها سبب للفلاح قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

---

(١) رواه أحمد وصححه الألباني.

٣- أنها سبب لقبول أعمال العبد والعفو عن سيئاته قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]

أي تُقبل توبته.

٤- أنها سبب لدخول الجنة والنجاة من النار:

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

٥- أنها سبب للمغفرة والرحمة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

٦- أنها سبب في تبديل السيئات إلى حسنات:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقال النبي ﷺ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(١).

٧- أنها سبب لكلِّ خير:

قال تعالى: ﴿**فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ [التوبة: ٣].

وقال سبحانه: ﴿**فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ**﴾ [التوبة: ٧٤].

٨- أنها سبب للإيمان والأجر العظيم:

قال تعالى: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١٤٦].

٩- أنها سبب في نزول البركات من السماء وزيادة القوَّة:

قال تعالى: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ**﴾ [هود: ٥٢].

١٠- ومن فضائل التوبة أنها سبب في دعاء الملائكة للتائبين:

وذلك كما قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**﴾ [غافر: ٧].

١١- ومن فضائلها أنها طاعة مرادة لله عزَّ وجل:

---

(١) رواه ابن ماجة وصححه الألباني.

وذلك كما قال تعالى: ﴿**والله يُريدُ أن يتُوب عليكم**﴾ [النساء: ٢٧] فالتائب فاعل لِما يحبه الله ويرضاه.

١٢- ومن فضائلها أنَّ الله عزَّ وجلَّ يفرح بها:

وذلك كما قال النبي ﷺ: «**لله أشدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلِّها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدَّة الفرح: "اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك" أخطأ من شدَّة الفرح**»[1] .

١٣- والتوبة كذلك سبب في نور القلب وإشراقه:

قال النبي ﷺ: «**إنَّ العبد إذا أخطأ نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله تعالى** ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[2] ».

فيا أخي الحبيب:

جديرٌ بكلِّ عاقلٍ أن يبادر إلى ما هذا فضله وتلك ثمرته..

أخي:

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة وحسنه الألباني.

قَـــدِّمْ لنَفسِـــكَ تَوبَـــةً مَرجُـــوَّةً
قَبلَ المَمَـاتِ وقَبـلَ حَـبسِ الأَلسُـنِ
بَـادِرْ بِهـا غَلْـقَ النُفُـوسِ فَإنَّهَـا
ذُخـرٌ وَغُـنْمٌ لِلمُنِيـبِ الْمُحسِـنِ

شروط التوبة الصادقة

هناك شروط للتوبة الصادقة لا تصحُّ ولا تُقبل إلاَّ بها، وهي:

أولاً– الإسلام:

فالتوبة لا تصحُّ من كافر؛ لأنَّ كفره دليل على كذبه في ادِّعاء التوبة، وتوبة الكافر دخولـه في الإسـلام أولاً .. قـال تعـالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

ثانيًا– الإخلاص لله:

فالله تعالى لا يقبل من الأعمال إلاَّ ما كان خالصًا له وحده ليس لأحد فيه شيء، وقد يتوب الإنسان من المعصية لأنه لا يستطيع فعلها، كمن لا يجد ثمن الخمر فيتوب من شربها وفي قرارة نفسه أنه لو وجد ثمنها لاشتراها وشربها، فهذا توبته باطلة لا تصحُّ؛ لأنه لم يُخلص لله تعالى فيها.

قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكلِّ امرئٍ مــا نوى**»(١).

وكان من دعاء الفاروق عمر بن الخطاب: «اللهم اجعل عملي كلَّه صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئًا».

ثالثًا- الإقلاع عن المعصية:

فلا تُتصوَّر صحَّة التوبة مع الإقامة على المعاصي حال التوبة .. أما إذا عاود الذنب بعد التوبة، وقد توفَّرت في التوبــة شــروطها، ومنها الإقلاع عن الذنب؛ فلا تبطل توبته المتقدمة، ولكنه يحتاج إلى توبةٍ أخرى ... وهكذا.

قال النووي: «وإذا تاب توبةً صحيحةً بشــروطها، ثم عــاود الذنب؛ كُتِب عليه ذلك الذنب الثاني و لم تبطل توبته»(٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا تاب توبةً صحيحةً غُفِرت ذنوبه، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب، وإذا تاب قبل الله توبته أيضًا»(٣) .

رابعًا- الاعتراف بالذنب:

إذ لا يمكن أن يتوب المرء من شيء لا يَعدُّه ذنبًا، كالذي يبتدع في دين الله عزَّ وجلَّ ما ليس منه، فإنه لا يعدُّ بدعته ذنبًا، بل إنــه

(١) متفق عليه.
(٢) شرح صحيح مسلم.
(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام.

يتقرَّب إلى الله تعالى بها .. وفي حديث الإفك قال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها:

«**أمَّا بعد يا عائشة، إنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإنَّ العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه**»[١] .

ومن هنا كانت المعصية أقلَّ خطورةً من البدعة، لأنَّ المعصية يُتاب منها في الغالب، أمَّا البدعة فلا يُتاب منها في الغالب.

خامسًا- الندم على ما سلف من الذنوب:

وهكذا المخالفات، ولا تتصوَّر التوبة إلا من نادم خائفٍ وجلٍ مُشفِقٍ على نفسه مِمَّا حصل منه، ولذلك قال النبي ﷺ: «**الندم توبة**»[٢] .

سادسًا- ردُّ المظالم إلى أهلها:

إن كانت المعصية مُتعلِّقة بحقوق الآدميين، قال النبي ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأحد من عرض أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقَدْر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه**»[٣] .

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أحمد وابن ماجة وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري.

سابعًا– وقوع التوبة قبل الغرغرة:

والغرغرة هي علامة من علامات الموت، تصل فيها الرُّوح إلى الحلقوم، فلا بدَّ أن تكون التوبة قبل الموت كما قـــال ســـبحانه: **﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِـــكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾**.

وقال النبي ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» [1].

أخي الحبيب:

خُذ مِن شَبابِكَ قَبْـــلَ المَـــوتِ وَالهَـــرَمِ
وَبَادِرِ التَّوبَـــةَ قَبـــلَ الفَـــوتِ وَالنَّـــدَمِ
وَاعلَـــمْ بِأَنَّـــكَ مَجْـــزِيٌّ وَمُـــرْتَهَنٌ
وَرَاقِـــبِ اللهَ وَاحـــذَرْ زِلَّـــةَ القَـــدَمِ

لأنَّ الشمس إذا طلعت من مغربها آمن الناس أجمعون وتيقَّنـــوا بقُرب قيام الساعة، ولكنَّ التوبة والإيمان عند ذلك لا تنفع .. قال النبي ﷺ: «**إنَّ الله عزَّ وجلَّ جعل بالمغرب بابًا مســـيرة عرضـــه سبعون عامًا للتوبة، لا يُغلق ما لم تطلع الشمس من قِبلَهِ، وذلك قول الله عز وجل ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَـــعُ نَفْسًـــا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾**[2] ».

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وصححه النووي.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجة وأحمد.

وقال ﷺ: «**إنَّ الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النـــهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس مـــن مغربها**»[١] .

أقوال السلف في التوبة

للسلف عبارات جميلة وإضاءات عطرة تُبيِّن عظم منزلة التوبة وتُحِثُّ على سلوكها، ومن هذه الأقوال:

١- **قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه:** «جالسوا التوابين؛ فإنهم أرقُّ الناس أفئدة».

٢- **قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:** «عجبًا لمن يهلك ومعه النجاة!.. قيل له: وما هي؟ قال: التوبة والاستغفار».

٣- **قول أحمد بن عاصم الأنطاكي:** «هذه غنيمـــة بـــاردة، أصلح فيما بقي، يُغفر لك فيما مضى».

٤- **قول سعيد بن المسيب:** «أنزل الله قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٥) في الرجل يـــذنب ثم يتـــوب، ثم يذنب ثم يتوب».

٥- **قول الحسن البصري:** «التوبة النصوح: نـــدم بالقلـــب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار ألاَّ يعود».

٦- **قول الفضيل بن عياض:** «كلُّ حزن يبلـــى إلى حـــزن

---

(١) رواه مسلم.

التائب».

٧- قول الربيع بن خثيم: «أتدرون ما الداء والدواء والشفاء؟ قالوا: لا. قال: الداء الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ثم لا تعود».

٨- قول طلق بن حبيب: «إنَّ حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد؛ فأصبحوا تائبين وأمسوا تائبين».

٩- قول شقيق البلخي: «علامة التوبة: البكاء على ما سلف، والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء، وملازمـــة الأخيار».

١٠- قول أبي علي الروذباري: «من الاغتـــرار أن تُسِـــيء فيُحسَن إليك، فتترك التوبة توهمًا أنك تُسامَح في الهفوات».

١١- قول لقمان لابنه: «يا بني، لا تؤخِّر التوبة؛ فإنَّ الموت يأتي بغتة».

١٢- قول أبي بكر الواسطي: «التأنِّي في كلِّ شيء حسن إلاَّ في ثلاث خصال»، وذكر منها «التوبة عند المعصية».

١٣- قول إبراهيم بن أدهم: «من أراد التوبة فليخرج مـــن المظالم، وليدع مخالطة الناس (أي في الشر)، وإلاَّ لم ينل ما يريد».

١٤- قول يحيى بن معاذ: «الذي حجب الناس عـــن التوبـــة طول الأمل، وعلامة التائب إسبال الدمعة، وحب الخلوة، والمحاسبة للنفس عند كلِّ همَّة».

مناجاة تائب

قال منصور بن عمار:

خرجت ليلة، وظننتُ أني قد أصبحت، وإذا عليَّ ليل، فقعدت عند باب صغير، وإذا بصوت شاب يبكـــي ويقـــول: وعزَّتـــك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك، ولا عصيتك حين عصـــيتك وأنا بنكالك جاهل، ولا لعقوبتك متعرِّض، ولا بنظرك مســـتخفٌّ، ولكن سوَّلت لي نفسي، وغلبت عليَّ شقوتي، وغرّني سترك المُرخَى عليَّ .. والآن، فمِن عذابك مَن ينقذني؟ وبحبل مَن أتصل إن قطعتَ حبلك عنِّي؟!

وا سوأتاه من تصرُّم أيامي في معصية ربِّي!.. يا ويلـــي! كـــم أتوبَ.. وكم أعودَ.. قد حان لي أن أستحي من ربِّي!

علامات التائب

قال بعض الحكماء: إنما تُعرف توبة الرجل من ستة أشياء.

أحدها- أن يمسك لسانه من الفضول والغيبة والكذب وكـــلِّ ذنب.

والثاني- ألاَّ يرى لأحدٍ في قلبه حسدًا ولا عداوة.

والثالث- أن يُفارق أصحاب السوء.

والرابع- أن يكون مستعدًّا للموت، نادمًا مستغفرًا لِما ســـلف من ذنوبه، مجتهدًا على طاعة ربه.

والخامس- أن يذهب عنه فرح الدنيا كلِّها من قلبــه، ويــرى حزن الآخرة كلِّها في قلبه.

والسادس- أن يرى نفسه فارغًا عمَّا ضمن الله تعــالى مــن الرزق، مُشتغِلاً بما أمر به.

فإذا وُجدت فيه هذه العلامات فهو من الذين قال الله تعالى في حقِّهم:

﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

واجب الناس تجاه التائب

وقيل: يجب على الناس تجاه التائب أربعة أشياء:

أولها- أن يحبوه؛ فإنَّ الله تعالى قد أحبَّه.

والثاني- أن يحفظوه بالدعاء على أن يُثبته الله على التوبة.

والثالث- ألاَّ يعيِّروه بما سلف من ذنوبه.

والرابع- أن يجالسوه ويذاكروه ويعينوه.

غرور التوبة

قال ابن الجوزي:

ينبغي للعاقل أن يكون على خوفٍ من ذنوبه وإن تاب منــها وبكى عليها، وإني رأيت أكثر الناس قد سكنوا إلى قبول التوبــة، وكأهم قد قطعوا على ذلك، وهذا أمرٌ غائب، ثم لو غُفرت بقــي الخجل من فعلها.

فالحذر الحذر من كلِّ ما يُوجِب خجلاً، وهذا أمرٌ قلَّ أن ينظر فيه تائب أو زاهد؛ لأنه يرى أنَّ العفو قد غمـــر الـــذنب التوبـــة الصادقة، وما ذكرته يوجب دوام الحذر والخجل[١] .

بداية التوبة ونهايتها

قال بعض السلف: إنَّ للتوبة بداية ونهاية.

فبدايتها:

التوبة من الكبائر ثم الصغائر، ثم المكروهات، ثم خلاف الأولى، ثم من رؤية الحسنات، ثم من رؤية أنه صدق في التوبة، ثم مِن كـــلِّ خاطرٍ يخطر له في غير مرضاة الله تعالى.

وأما نهايتها:

فالتوبة كلَّما غفل عن شهود ربِّه تعالى مراقبته طرفة عين.

مم نتوب؟

أخي الحبيب:

اعلم أنَّ الذنوب التي يُتاب منها تنقسم إلى قســـمين: صـــغائر وكبائر..

وقد دلَّ الكتاب والسُنة وإجماع الأمَّة على هذا التقسيم، قـــال تعالى:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَـــنْكُمْ سَـــيِّئَاتِكُمْ﴾

(١) صيد الخاطر.

[النساء: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]

واللمم: ما دون الكبائر.

وقال النبي ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعـــة إلى الجمعـــة، ورمضان إلى رمضان مكفِّرات لما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائر**»(١) .

وليس معنى هذا التقسيم أنَّ التوبة الواجبة لا تكـــون إلاَّ مـــن الكبائر فقط، وإنما الواجب أن يتوب العبد من الكبائر والصـــغائر معًا، بل إنَّ السُّنة جاءت بالتحذير من التهاون في شأن الصـــغائر، وذلك في قول النبي ﷺ: «**إياكم ومحقِّرات الذنوب؛ فإهنَّ يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، كرجل كان بأرض فلاة فحضر صـــنيع قوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأجَّجوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها**»(٢).

فائدة مهمَّة

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله:

إنَّ الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها مـــا يُلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلَّة الحياء وعدم المبالاة، وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه أحمد بسند حسن.

رتبة.

فاحذر أخي الحبيب من الكبائر والصغائر معًا، واحذر كذلك من الأمور التي قد تقترن بالصغيرة فتنقلها من سجلِّ الصـــغائر إلى سِجلّ الكبائر ومن ذلك :

١- الإصرار والمواظبة على الصغائر:

ولذلك قيل: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

٢- استصغار الذنب واحتقاره:

وقد مرَّ قول ابن مسعود رضي الله عنه في ذلـــك، وفي ذلـــك أيضًا يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر، كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات.

٣- السرور بالصغيرة والفرح بها:

وهذا أيضًا دليل على شدَّة الغفلة والرغبة في المعصية والجهـــل بعظمة الله تعالى، والجهل بسوء عواقب الذنوب والمعاصي وعظـــم خطرها، فإذا اشتدَّت غفلته إلى هذا الحدِّ نقلته ولا بدَّ إلى الإصرار، وهو الاستقرار على المخالفة والعزم على العودة، وذلك ذنب آخر لعلَّه أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الـــذنب أنـــه يوجد أكبر منه.

٤- التهاون بستر الله وحِلمه:

فإذا لم يرَ مرتكب الصغائر العقوبة الظاهرة اغترَّ بستر الله عليه،

وظنَّ أنَّ الله تعالى يحبه ويكرمه، ولا يدري المسكين أنَّ هذا إمهال من الله تعالى ليتوب إليه ويقلع عن ذنوبه.

٥- هتك ستر الله بذكر الذنوب:

فمن ارتكب صغيرة وسترها الله عليه ثم أظهرهـــا وذكرهـــا وتحدَّث بها، فإنه قد ضاعف صغيرته بما ضم إليها من ذنوب؛ لأنــــه إذا حدَّث بذنبه لا عن طريق الندم بل عن طريق التفاخر والسرور؛ فإنه بذلك يُرغِّب السامعين في ارتكاب مثل هــــذه الــــذنوب وإن كانت صغائر .. قال النبي ﷺ: «**كلُّ أمَّتي معافى إلاَّ المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره ربــــه فيقول: يا فلان، قد عملت البارحة كذا وكذا، فيبيت يســــتره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عليه**»(١) .

٦- كون فاعل الصغيرة عالمًا يُقتدى به أو رجــــلاً معروفًـــا بالصلاح:

وهذا إن فعل الصغائر مُتعمِّدًا مُكابرًا، ضاربًا للنصوص بعضها ببعض، ربما كان حظه أن تنقلب عليه الصغائر كبائر، لكن من فعل ذلك متأوِّلاً أو لغضب، أو لغير ذلك فقد يُغفر له، لاسيَّما إن كان له أعمال صالحة تُوجب ذلك (٢) .

---

(١) متفق عليه.

(٢) العبادات القلبية باختصار.

أجناس المحرمات

أخي الحبيب:

تذكَّر أنَّ العبد لا يستحق اسم التائب حتى يتخلَّص من اثـــني عشر جنسًا من المحرمات وهي:

١– الكفر:

وهو نوعان: أكبر، وأصغر.

فالأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود في النار.

والأكبر: يُوجب الخلود في النار وهو خمسة أنواع:

١– كُفر التكذيب.

٢– كُفر الاستكبار.

٣– كُفر الإباء مع التصديق.

٤– كُفر الشك.

٥– كُفر النفاق.

٢– الشِّـــرك:

وهو نوعان: أصغر، وأكبر.

فالأكبر: لا يغفره الله إلاَّ بالتوبة منه، وهو أن يتَّخذ مـــن دون الله ندًّا يسويه بالله في المحبَّة والتعظيم، وهو يُوجب الخـــروج مـــن الإسلام.

والأصغر: مثل يسير الرياء والتصنُّع للخَلق والحلف بغـــير الله، وصاحب هذا النوع مستحقٌّ للوعيد، إلاَّ أنه لا يخرج به عن دائرة الإسلام.

٣- النفاق:

وهو نوعان أصغر وأكبر.

فالأكبر: يُوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهـــو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتُبه ورُسله واليوم الآخـــر، وهو في الباطن منسلخٌ من ذلك كلِّه مكذِّبٌ به.

والأصغر: فلا يكون صاحبه مُكذِّبًا في الباطن، وصاحب هـــذا النوع متعرِّضٌ للوعيد دون الخلود في جهنم.

٤- ٥ الفسوق والعصيان.

٦- ٧ الإثم والعدوان.

٨- ٩ الفحشاء والمنكر.

١٠- البغي.

١١- القول على الله بلا علم.

١٢- اتباع غير سبيل المؤمنين.

علامات قبول التوبة

هناك علامات تدلُّ على صحَّة التوبة وقبولها، وهي مما يَستأنس به التائب ويفرح به، لأنه بوقوعها يعلم أنـــه يســـير في الطريـــق الصحيح الموصل إلى النجاة والفوز يـــوم القيامـــة، ومـــن هـــذه العلامات:

أولاً– أن يكون العبد بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها:

وكلُّ إنسانٍ يَستشعر ذلك من نفسه، فإذا كان بعد التوبة مُقبلاً على الله، عالي الهمَّة قويَّ العزيمة؛ دلَّ ذلك علـــى صِـــدق توبتـــه وصحَّتها وقَبولها.

ثانيًا– ألاَّ يزال الخوف ومراقبة الله تعالى مصاحبًا له:

فإنَّ العاقل لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مســـتمرٌّ إلى أن يسمع قول الملائكة الموكِّلين بقبض رُوحه: ﴿**أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ فهناك يزول خوفه ويذهب قلقه.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لو أنَّ إحدى قـــدمَيَّ في الجنة ما أمنت مكر الله!

ولعلَّ هذا استشعار لقول النبي ﷺ: «**القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**».

ثالثًا– أن تحدث له التوبة انكسارًا في قلبه وذلاًّ وتواضعًا بين يدي ربه:

وهذا الانكسار والذل أنفع للعبد من طاعاتٍ كثيرةٍ يمـــن بها على ربِّه كما قيل «رُبَّ معصيةٍ أورثت ذُلاًّ وانكسارًا، ورُبَّ طاعةٍ أورثت كِبرًا وغرورًا».

رابعًا– أن يستعظم الجناية التي صدرت منه وإن كان قد تاب منها:

ويكون ذلك بتعظيم الأمر والآمر والتصديق بـــالجزاء، قـــال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِـــنْ تَقْـــوَى الْقُلُـــوبِ﴾ [الحج: ٣٢]

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «إنَّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ مرَّ على أنفه»، ولذلك قال بعض السلف: «لا تنظـــر إلى صـــغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت»!

خامسًا: من علامات قبول التوبة أيضًا:

١– أن يحذر التائب من أمر لسانه؛ فيحفظـــه مـــن الكـــذب والغيبة والنميمة وفضول الكلام، ويشغله بذِكر الله تعالى وتـــلاوة كتابه.

٢– أن يحذر من أمر بطنه؛ فلا يأكل إلاَّ حلالاً.

٣– أن يحذر من أمر بصره؛ فلا ينظر إلى الحرام، ولا إلى الدنيا بعين الرغبة فيها.

٤– أن يحذر من أمر سمعه؛ فلا يستمع إلى معصـــيةٍ كـــآلات

طربٍ ولهوٍ، ولا إلى كذبٍ وغيبة.

٥- أن يحذر من أمر يده؛ فلا يمدُّها إلى الحرام، وإنما يمدُّها إلى ما فيه طاعةٌ الله عز وجل.

٦- أن يحذر من أمر قدميه؛ فلا يمشي بهما إلى مواطن الملاهي والمعاصي، بل يمشي بهما إلى المساجد والجهاد ومواطن الطاعات.

٧- أن يحذر من أمر قلبه؛ فيُطهِّره من العداوة الدنيوية والبُغض من أجل الدنيا، ويُطهِّره من الحسد وسائر الآفات، ويجعـــل فيـــه الشفقة والنصيحة والحبّ في الله والبُغض في الله.

٨- أن يحذر من أمر طاعته؛ فيجعلها خالصةً لوجـــه الله عـــزَّ وجلَّ، ويجتنب الرياء والسمعة [١] .

الأسباب الداعية إلى التوبة والاستمرار عليها

إذا أراد الله بعبده خيرًا يسَّـــر له الأسباب التي تأخذ بيـــده إلى مقام التوبة وتُعينه عليها، وتُزيِّن له الاستمرار ومتابعة السير وعـــدم الانقطاع، ومِن هذه الأسباب:

١- محاسبة النفس:

وهي منزلة التمييز بين ما للعبد وما عليه، وهي تُعين العبد على التوبة، وتحافظ له عليها بعد وقوعها .. قال ابن القيم:

ومن منزلة المحاسبة يصح له نزول منزلة التوبـــة؛ لأنـــه إذا

(١) التوبة للبيانوني.

حاسب نفسه عرف ما عليه من الحق فخرج منه، وتنصل منه إلى صاحبه، وهي حقيقة التوبة.

والتحقيق:

أنَّ التوبة بين محاسبتين: محاسبة قبلها تقتضي وجوبها، ومحاسبة بعدها تقتضي حفظها[(١)] .

٢- تدبر عواقب الذنوب:

فالمرء إذا علم أنَّ المعاصي قبيحة العواقب سيَّئة المنتـــهى، وأنَّ الجزاء بالمرصاد، دعاه ذلك إلى ترك الذنوب من البداية، والتوبة إلى الله إن كان اقترف شيئًا منها.

قال ابن الجوزي: إنما فضل العقل بتأمُّل العواقب، فأمَّا القليـــل العقل فإنه يرى الحال الحاضرة ولا ينظر إلى عاقبتها؛ فإنّ اللصَّ يرى أخذ المال وينسى قطع اليد!.. وكذلك شارب الخمر يلتـــذُّ تلـــك الساعة، وينسى ما يجني من الآفات في الدنيا والآخـــرة، وكـــذلك الزنا؛ فإنَّ الإنسان يرى قضاء الشهوة، وينسى ما يجني من فضيحة الدنيا ومن الحدِّ، فقِسْ على هذه النبذة وانتبه للعواقب، ولا تـــؤثر لذَّة تُفوِّت خيرًا كثيرًا[(٢)] .

٣- تدبر القرآن:

فالقرآن كتاب الله المبين، فيه الهدى والنور والمخرج من كـــلِّ

(١) مدارج السالكين.

(٢) صيد الخاطر.

فتنة، سواء في ذلك فِتَن الشهوات أو الشبهات .. ومن تدبَّر القرآن حقَّ تدبُّره أورثه ذلك علمًا نافعًا وتوبةً صادقةً وبصيرةً نافذةً وزُهدًا في الدنيا، وإقبالاً على الآخرة، وبغضًا للمعصية، وحبًّا للطاعة، وإجلالاً لِلرَّبِّ جلَّ وعلا، قال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

٤- الحرص على صُحبة الأخيار وترك صحبة الأشرار:

وهذا أيضًا مما يُعين المرء على التوبة واستمرارها، فإنَّ الطبع يسرق من خصال المخالطين قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال النبي ﷺ: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»[(١)].

٥- ومن أسباب استمرار التوبة:

مفارقة موضع المعصية:

وذلك إذا كان وجوده فيه سببًا في وقوعه في المعصية مرَّةً أخرى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

٦- و من أسباب استمرار التوبة:

ذِكر الله تعالى ودعاؤه واستغفاره..

(١) رواه الترمذي.

فإنَّ الذِّكر حياة القلوب، والدعاء سلاح المؤمن، والاســــتغفار من دلائل التوبة والإنابة، وكلٌّ ذلك يُوقظ القلب ويُنبِّهه ويطرد عنه واردات القسوة والغفلة والتعلُّق بالدنيا.

٧- ومن أسباب استمرار التوبة:

قصر الأمل وذكر الموت:

وكذلك تذكُّر منازل الآخرة، من زيارة القبور وتشييع الجنائز، وكلُّها أمورٌ تعمل على يقظة القلب وعدم غفلته.

٨- ومن أسباب استمرار التوبة:

تحري الحلال في المأكل والمشرب والملبس والمركب وفي كل شيء.

٩- ومن الأسباب كذلك:

التخلص من المحرمات الظاهرة بإتلافها..

مثل المسكرات وآلات اللهو والصور والأفلام المحرمة والقصص الماجنة والتماثيل والدش وغير ذلك.

من قصص التائبين

أخي الحبيب:

قصص التائبين كثيرة، وأخبار العائدين طويلة .. فكم من أناسٍ تابوا بعد طول شرود!.. وكم من صاحب معصية أدرك أنَّ العز في طاعة الله، وأنَّ عواقب الذنوب والمعاصي وخيمة!.. وفي قصـــــص

هؤلاء عِبَر وعظات، وتنبيه للقلب وإيقاظ له من وهدة الغفـــلات، وحث له على الطاعة وترك المنكرات.

واعلم أخي الحبيب أنَّ مبدأ التوبة يقظة القلب وانتباهـــه مـــن رقدة الغافلين، وتعظيم جناب الربِّ تعالى من سلوك سبيل الجاهلين .. نسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعًا من التائبين العائدين.

توبة الكفل

عن ابن عمر رضي الله عنه قال:

لقد سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا قال: «**كان الكفل مـــن بني إسرائيل لا يتورَّع عن ذنب عمله، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل مـــن امرأتـــه ارتعدت وبكت، فقال لها: ما يبكيك؟ أأكرهتـــك؟ قالـــت: لا، ولكنَّ هذا عملٌ لم أعمله قط. قال: فلِمَ تفعلين هذا ولم تكـــوني فعلتيه قط؟ قالت: حملتني عليه الحاجة. قال: فتركهـــا، ثم قـــال اذهبي والدنانير لك. ثم قال: والله لا يعصي الله الكفـــل أبـــدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه "غفر الله للكفل"**»(١).

توبة قاتل المائة

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم**

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

أهل الأرض فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل من توبة؟ فقال لا، فقتله، فكمل به مائة. ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجلٍ عالم. فقال إنه قتل مائة نفس، فهل من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنَّ بها أناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء .. فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قِيسوا ما بين الأرضين؛ فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبرٍ فجُعِل من أهلها».

وفي رواية: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هـــذه أن تقربي، وقال: قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغُفـــر له»[1].

توبة ثلاث بنات بغايا

(١) متفق عليه.

قال الحسن أبو جعفر:

كان لقمان الحبشي عبدًا لرجلٍ جاء به إلى السوق يبيعه، قال: فكان كلَّما جاء إنسان يشتريه قال له لقمان: ما تصنع بي؟ فيقول: أصنع بك كذا وكذا فيقول: حاجتي إليك ألاَّ تشتريني..

حتى جاء رجل فقال: ما تصنع بي؟

قال: أصيرك بوابًا على بابي، قال: أنت اشترني.

قال: فاشتراه، وجاء به إلى داره.

قال: وكان لمولاه ثلاث بنات يبغين في القرية، وأراد أن يخرج إلى ضيعة له، فقال له: إني قد أدخلت إليهنَّ طعامهنَّ وما يحـــتجن إليه، فإذا خرجت فأغلق الباب واقعد من ورائه ولا تفتحـــه حـــتى أجيء.

قال: فقلن له: افتح الباب، فأبى عليهنَّ فَشَجحنه فغسل الـــدم وجلس. فلمَّا قدم سيده لم يخبره. ثم عاد مولاه بعد الخروج فقـــال: إني قد أدخلت إليهنَّ ما يحتجن إليه، فلا تفتحنَّ الباب.

فلمَّا خرج خرجن إليه فقلن له: افتح الباب، فأبى فشـــججنه ورجعن، فجلس فلما جاء مولاه لم يخبره بشيء.

قال: فقالت الكبيرة: ما بال هذا العبد الحبشي أولى بطاعة الله عز وجل مني؟ والله لأتوبنَّ فتابت.

وقالت الصغرى: ما بال هذا العبد الحبشي وهذه الكبرى أولى بطاعة الله عز وجل مني؟ والله لأتوبنَّ فتابت.

وقالت الوسطى: ما بال هاتين وهذا العبد الحبشي أولى بطاعة الله عز وجل مني؟ والله لأتوبنَّ فتابت.

قال:

فقال غواة القرية: ما بال هذا العبد الحبشي وبنات فـــلان أولى بطاعة الله منا؟ فتابوا إلى الله عزَّ وجل، وكانوا من عبَّاد القرية[١] .

توبة الغامدية

جاءت امرأة من غامد إلى النبي ﷺ فقالت: يـــا رســـول الله، طهرني.

فقال: «**ويحك، ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه**».

فقالت: أراك تريد أن ترددني كما رددت ماعز بن مالك؟

قال: «**وما ذاك؟**» قالت إنها حبلى من الزنا.

فقال: «**آنت؟**» قالت: نعم.

فقال لها: «**حتى تضعي ما في بطنك**».

قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت.

قال: فأتى النبي ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية فقال: «**إذن لا نرجمها وندع ولدها صغيرًا ليس له من يرضعه**».

فقام رجل من الأنصار فقال: إليَّ رضاعه يا نـــبي الله، قـــال:

---

(١) كتاب التوابين.

فرجمها.

وفي رواية: فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضَّح الدم على وجه خالد، فسبَّها، فسمع النبي ﷺ سبَّه إياها فقال: «**مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكسٍ لغُفِرَ له**».

ثم أمر بها فصلى عليها ودُفنت.

وفي رواية: «**لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى**»[1].

توبة زاذان

رُوي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مرَّ ذات يومٍ في موضعٍ من نواحي الكوفة، فإذا فتيانٌ فُساق قد اجتمعوا يشربون، وفيهم مغنٍّ يقال له «زاذان» يضرب بالعود ويغني، وكان له صوتٌ حسن، فلمَّا سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله! وجعل الرداء على رأسه ومضى.

فسمع زاذان قوله فقال: من كان هذا؟

قالوا: عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ.

قال: وأي شيء قال؟

---

(١) رواه مسلم.

قالوا: إنه قال «ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتـاب الله تعالى».

فقام، وضرب بالعود على الأرض فكسره، ثم أسرع فأدركه، وجعل بالمنديل في عُنق نفسه، وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود فاعتنقه عبد الله بن مسعود، وجعل يبكـي كـلٌّ واحـد منهما.. ثم قال عبد الله: كيف لا أحبُّ من قد أحبَّه الله عزَّ وجلَّ؟

فتاب إلى الله عزَّ وجلَّ من ذنوبه ولازم عبد الله حـتى تعلَّم القرآن، وأخذ حظًّا وافرًا من العلم حتى صار إمامًا في العلم رحمه الله[1].

بُشرى للتائبين

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إنَّ عبدًا أصاب ذنبًا فقال: يا رب، إني أذنبت ذنبًا فاغفره لي. فقال ربُّه: علم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنبًا آخر، فقال: يا ربّ، إني أذنبتُ ذنبًا فاغفر لي، فقال ربُّه: علم عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به، فقال ربُّه: غفرتُ لعبدي؛ فليعمل ما شاء»**[2].

قُل للَّذي أَلِف الذنوب وأَجرَمَا
وغَدَا عَلَى زَلاَّتِه مُتندِّمَا
لا تَيئسَنُ من الجَلِيلِ فَعِندَنَا

(١) كتاب التوابين.
(٢) متفق عليه.

فَضـــــلٌ يُنِيـــــلُ التَّـــائبين تكرُّمَــــا

يَا مَعشَـــرَ العَاصِـــينَ جُـــودي وَاسِـــعُ
تُوبُـــوا ودُونكـــم المُنَـــى والمغنَمَـــا
لا تَقنَطُـــوا فالـــذَّنبُ مَغفـــورٌ لَكُـــم
إنِّـــي الجـــدِيرُ بِـــأن أَجُـــودُ وَأرحَمَـــا

المصادر

- مدارج السالكين- الفوائد – الجواب الكافي- لابن القيم.
- صيد الخاطر- التبصرة – لابن الجوزي.
- التوَّابين – لابن قدامة المقدسي.
- التوبة- أحمد عز الدين البيانوني.
- التوبة إلى الله – صالح السدلان.
- أريد أن أتوب ولكن – محمد المنجد.
- الفجر الصادق- عبد الملك القاسم.